موقف ألفين بلانينتنجا من الأدلة المُبطِلة للاعتقاد التأليهي (التعددية الدينية)

منى أحمد محمود أحمد (*)

ملخص البحث:

يتناول هذا البحث موقف الفيلسوف الأمريكي ألفين بلانتينجا Alvin Plantinga (١٩٣٢-) من إشكالية التعددية الدينية بوصفها إحدى أبرز القضايا الجدلية في فلسفة الدين المعاصرة. وسنحاول من خلال هذا البحث الإجابة على التساؤل الرئيس الذي مفاده: هل تشكل التعددية الدينية دليلًا مُبطِلًا للاعتقاد التأليهي من وجهة نظر بلانتينجا؟ وفي الحقيقة يذهب بلانتينجا إلى أن التعددية الدينية لا تُلزم المؤمن بالتخلي عن التزامه العقائدي؛ ولذلك يدافع بشدة عن الحصرية الدينية. وقد اعتمدت على المنهج التحليلي لتوضيح أفكاره، والمنهج المقارن لمقارنة آرائه بآراء فلاسفة الدين السابقين عليه والمعاصرين له، لمعرفة مدى تأثره بهم، والمنهج النقدي لتقييم فكره ومعرفة مدى اتساقه. ويخلص البحث إلى أن دفاع بلانتينجا عن الحصرية الدينية يشير إلى أن موقفه يعاني إشكالية التحيز غير المبرر. ولمعرفة إلى أي مدى يمكن لدفاع بلانتنيجا عن الحصرية الدينية أن يصمد أمام التحديات الفلسفية التي تطرحها إشكالية التعددية الدينية علينا أنت نتناول العناصر الأساسية الآتية:

١- الأدلة المُبطِلة: مفهومها وطبيعتها.
٢- هل النظريات الإسقاطية تُعد مُبطِلات للاعتقاد التأليهي؟
٣- التعددية الدينية: دفاع بلانتينجا عن الحصرية الدينية.
٤- رد بلانتينجا على الاعتراضات الموجهة ضد أنصار الحصرية الدينية.

(*) هذا البحث مستل من رسالة الدكتوراه الخاصة بالباحثة، وهي بعنوان: [فلسفة الدين عند ألفين بلانتينجا]، وتحت إشراف: أ. د. نصار محمد عبدالله – كلية الآداب – جامعة سوهاج & أ.د. علي حسين قاسم – كلية الآداب – جامعة سوهاج.

١- الأدلة المُبطِلة: مفهومها وطبيعتها

في البداية نود أن نشير إلى أن بلانتينجا، بعد أن طرح النموذج الأكويني الكالڤِني الموسَّع، انتهى إلى وجهة نظر مفادها أن هذا النموذج يُظهر لنا كيف يمكن أن يكون للمعتقدات المسيحية ما يبررها بالفعل. واستنتاج هذا الرأي يرجع إلى اعتقاده بأنه وفقًا لهذا النموذج، لا يأتي الاعتقاد المسيحي عن طريق الحجج المستقاة من المعتقدات الأخرى. بل بالأحرى، إن الفكرة الأساسية هي أن الله يزودنا نحن البشر بالملكات أو العمليات المنتجة للمعتقدات والتي من شأنها أن تنتج هذه المعتقدات وتهدف إلى الوصول إلى الحقيقة بنجاح؛ فعندما تعمل بالطريقة التي صُممت بها ضمن نمط البيئة التي صُممت من أجلها، تصبح النتيجة معرفة أو اعتقادًا مبررًا[١].

وفي رأيه هذا بالطبع لا يكاد يحسم مسألة ما إذا كان الاعتقاد المسيحي (حتى لو كان صحيحًا) له أو يمكن أن يكون له ما يبرره، في الظروف التي يجد معظم المسيحيين أنفسهم فيها بالفعل. ولتوضيح لذلك يقول: "قد يعبر شخص ما عن تلك المسألة على النحو التالي: حسنًا، قد يكون لهذه المعتقدات مبرر وتشكِّل معرفة: توجد ظروف يمكن أن يحدث فيها هذا. ومع ذلك، فإن معظمنا -على سبيل المثال، معظم أولئك الذين قرأوا هذا الكتاب- ليسوا موجودين في تلك الظروف. ما أوضحته حتى الآن هو فقط أن الاعتقاد التأليهي والمسيحي (المفهوم بالطريقة الأساسية) يمكن أن يكون له ما يبرره، مع غياب الأدلة المبطلة (المبطلات) Defeaters، غير أن الأدلة المبطلة ليست غائبة"[٢].

وعلى ذلك، فالزعم المطروح هو وجود أدلة مُبطلة قوية للاعتقاد المسيحي: القضايا التي يعرفها المسيحيون أو يؤمنون بها، والتي تجعل الاعتقاد المسيحي غير عقلاني وبالتالي غير مبرر. وهذا الزعم نجده لدى فيليب كوين (١٩٤٠- ٢٠٠٤) Philip Quinn، على سبيل المثال، إذ يعتقد أنه بالنسبة إلى البالغين الناضجين فكريًّا في ثقافتنا، توجد أدلة مبطلة مهمة للإيمان بالله، على الأقل إذا اعتنقه المرء

(1) Alvin Plantinga, *Warranted Christian Belief* (Oxford: Oxford University Press, 2000), 291; Alvin Plantinga, *Knowledge and Christian Belief* (Grand Rapids: Wm. B. Eerdmans Publishing Co., 2015), 81

(2) Ibid.; Alvin Plantinga, *Knowledge and Christian Belief*, 81.

بالطريقة الأساسية، كما هي الحال في النموذج الأكويني/ الكالفِني. وعلى ذلك، فإن الإيمان بالله الذي يعتنقه المرء بالطريقة الأساسية، كما هي الحال في النموذج، هو إلى حد كبير غير عقلاني. وقد توصل إلى نتيجة مفادها أن العديد من البالغين، وربما معظمهم، الناضجين فكريًّا في ثقافتنا، نادرًا ما يكونون في ظروف مناسبة تسمح بأن تكون المعتقدات التأليهية أساسية بالنسبة إليهم(١).

ويتساءل بلانتينجا: هل كوين على حق؟ ويعتقد أنه للإجابة عن هذا التساؤل، عليه أن ينظر أولًا في سؤال أولي: ما هو الدليل المبطل؟ ويسوق هنا بعض الأمثلة ويظن أنها ستكون مفيدة، فيقول: "أرى (على بعد مئة ياردة) ما أعتقد أنه خروف في حقل، وبطبيعة الحال، أومن بأن في الحقل خروفًا، وأعلم أنك صاحب الحقل. في اليوم التالي أخبرتني أنه لا يوجد خروف في هذا الحقل، وأنك فقط تقتني كلبًا يشبه الأغنام على بعد مئة ياردة ويتردد على الحقل. ومن ثم (في حالة عدم وجود ظروف خاصة) يصبح لديَّ دليل مبطل للاعتقاد بأن في هذا الحقل خروفًا، وإذا كان هذا الدليل عقلانيًّا، فسوف أتخلى عن هذا الاعتقاد"(٢).

ويقدم مثالًا آخر فيقول: "لقد كنت دائمًا أعتقد أنه لا يوجد صبار في شبه جزيرة مِتْشِجِن العليا. وفي نزهة عبر جبال بوركوباين Porcupine ، صادفت عينة رائعة من التين الشوكي. هذا يعطيني دليلًا مبطلًا لاعتقادي بأنه لا يوجد صبار في شبه الجزيرة العليا"(٣).

وهنا يشير بلانتينجا إلى أنه في هاتين الحالتين، عَلم أن الاعتقاد المبطَل خاطئ. ويشير أيضًا إلى أن هذا النوع من الأدلة المبطِلة يُسمّى الأدلة الداحضة أو المُبطلات الداحضة Rebutting Defeaters ، وفضلًا عن ذلك يشير إلى نوع آخر من الأدلة المبطِلة يُسمّى الأدلة المُقوِّضة Undercutting Defeaters ويوضحها لنا من خلال طرح حالات أخرى لا يعرف فيها المرء أن الاعتقاد خاطئ، لكنه بدلًا من ذلك يفقد أسباب التمسك به فيقول: "على سبيل المثال، أرى شخصًا يخرج من المنزل المقابل لمنزلي فأعتقد أن بول هو الذي خرج من هذا

---

(1) Alvin Plantinga, *Knowledge and Christian Belief*, 81; Alvin Plantinga, *Warranted Christian Belief*, 291-292.

(2) Ibid., 81-82; Alvin Plantinga, *Warranted Christian Belief* , 292.

(3) Alvin Plantinga, *Where the Conflict Really Lies: Science, Religion, and Naturalism*, (New York: Oxford University Press, 2011), 243.

المنزل، ثم تخبرني أنت أن بيتر شقيق بول التوأم وصل الليلة الماضية، ويقيم مع بول، وأنه لا يمكن للجميع التمييز بينهما باستثناء زوجتيهما. عندئذٍ، لا ينبغي لي أن أعتقد أن بول هو الذي خرج من المنزل. مع ذلك، لن أعتقد أنه ليس بول أيضًا، بل بدلًا من ذلك سأتوقف حيال الاعتقاد بأنه بول: سأكون لا أدريًّا بشأن هويته"[١].

ويقول أيضًا: "تدخل مصنعًا وترى خط تجميع يوجد عليه عدد من الأدوات، وكلها تبدو حمراء، ويتكوّن لديك الاعتقاد بأنها حمراء. ثم يأتي بعد ذلك مدير المتجر، الذي يخبرك أن الأدوات تتعرض للإشعاع بواسطة الضوء الأحمر والأشعة تحت الحمراء، وهي عملية تجعل من الممكن اكتشاف تشققات غاية في الدقة. يصبح لديك بعد ذلك دليل مبطل لاعتقادك بأن الأداة التي تنظر إليها حمراء. في هذه الحالة، ما تعلمته ليس أن المعتقد المبطَل خاطئ (لم يتم إخبارك أن هذه الأداة ليست باللون الأحمر) بل إن ما تتعلمه، بالأحرى، هو شيء يقوض أسسك أو أسباب اعتقادك بأنها باللون الأحمر. (أنت تدرك أنها ستبدو حمراء حتى لو لم تكن كذلك)"[٢].

ومن هذا المنطلق، يعرّف بلانتينجا الأدلة المبطلة بأنها أسباب للتخلي عن المعتقد "ب" الذي يعتنقه المرء. ويرى أن هذه الأدلة إذا كانت تمثل أيضًا أسبابًا للاعتقاد بأن هذا المعتقد باطل، فإنها تصبح أدلة مبطلة داحضة، وأنها إذا لم تكن أسبابًا للاعتقاد بأنه باطل، فإنها تصبح مبطلات مُقوضة. ويرى أيضًا أن اكتساب المرء لدليل مبطل لاعتقادٍ ما، يضعه في موقف لا يمكنه فيه الاستمرار في تبني هذا الاعتقاد بعقلانية[٣].

وعلاوة على ذلك، يرى بلانتينجا أن الأدلة المبطلة تعتمد على بقية ما يعرفه المرء ويؤمن به من معتقدات. وفي هذا الصدد يقول: "إن مسألة ما إذا كان الاعتقاد (أ) يُشكل دليلًا مُبطِلًا للاعتقاد (ب)، لا تعتمد على تجربتي الحالية فقط، بل تعتمد أيضًا على المعتقدات الأخرى التي لديَّ، ومدى ثباتي في التمسك بها.

---

(1) Ibid.
(2) Alvin Plantinga, *Warranted Christian Belief*, 292-293; Alvin Plantinga, *Knowledge and Christian Belief*, 82
(3) Alvin Plantinga, *Knowledge and Christian Belief*, 82; Alvin Plantinga, *Warranted Christian Belief*, 293.

وعلى سبيل المثال، في الحالة المذكورة أعلاه، عندما تخبرني بأن الحقل لا يوجد فيه خروف، فإن قولك يشكل دليلًا مُبطِلًا لاعتقادي بأنني أرى خروفًا هناك. بيد أن هذا يعتمد على افتراضي أنك جدير بالثقة، على الأقل في هذه المناسبة وفي هذا السياق. على النقيض من ذلك، إذا كنت أعلم أنك مشهور بسوء السمعة وتحب على نحو خاص تضليل الناس بشأن الأغنام، فإن ما تقوله لن يشكل دليلًا مبطلًا لاعتقادي، وكذلك لن يشكل دليلًا مبطلًا إذا كنت أتفقد الخروف من خلال منظار قوي وأرى بوضوح أنه خروف، أو إذا كان شخص أثق به يقف أمام الخروف مباشرةً، ويخبرني عبر الهاتف الخلوي أنه خروف بالفعل"[١].

٢- هل النظريات الإسقاطية تُعد مُبطِلات للاعتقاد التأليهي؟

يحاول بلانتينجا تفنيد النظريات الإسقاطية التي طرحها كوين، والتي تستهدف دحض الاعتقاد الديني، وخاصة الاعتقاد التأليهي. فهذه النظريات تقترح تفسير الاعتقاد التأليهي والمعتقدات الدينية الأخرى من حيث إسقاطنا على السماء شيئًا مثل الأب المثالي. ووفقًا لكوين، هذه النظريات، جنبًا إلى جنب مع الشر الطبيعي، تشكل مُبطِلات للاعتقاد التأليهي، وبالتالي للاعتقاد المسيحي. بيد أن بلانتينجا يرفض وجهة نظر كوين هذه، فهو لا ينظر إلى النظريات الإسقاطية التي قدمها فرويد وماركس ودوركهايم وغيرهم على أنها أسباب تدفع المؤمنين المسيحيين المعاصرين المسؤولين والمطلعين إلى التخلي عن الاعتقاد التأليهي، أو على أي حال إلى قبوله بنحو أقل حزمًا[٢].

ولكي يُبين لنا أن كوين ليس محقًّا في زعمه هذا يقول: "وفقًا لماركس، ينشأ هذا الاعتقاد نتيجة لنوع من الاضطراب المعرفي الناتج عن مجتمع مضطرب. ووفقًا لفرويد، ينتج عن العمليات المعرفية التي تهدف إلى الراحة النفسية أو النجاة، بدلًا من الحقيقة. الآن إذا صدقت هذه الادعاءات، فقد يكون لديَّ سبب للتخلي عن الاعتقاد التأليهي. لكن لماذا أصدقهما؟ هل توجد حجة منطقية مقنعة لواحد منهما أو للآخر؟ من المؤكد أن فرويد وماركس لا يقدمان أي أسباب تجعلنا نعتقد أن هذه

(1) Alvin Plantinga, *Warranted Christian Belief*. 293; Alvin Plantinga, *Knowledge and Christian Belief*, 82.
(2) Ibid., 299.

النظريات صحيحة، بل اكتفيا بمجرد طرحها. والأهم من ذلك (...) أن انتقادهما لمبررات الاعتقاد التأليهي يفترض حقًّا أن هذا الاعتقاد باطل، أي أنه يفترض الإلحاد مسبقًا. ومع ذلك، إذا كنتُ على علم بذلك، فكيف يمكن أن يشكل انتقادهما، بالنسبة إليَّ، دليلًا مُبطِلًا للاعتقاد التأليهي؟ إذا كان الاعتقاد التأليهي باطلًا، فقد تكون أطروحة فرويد وماركس طريقة جيدة للتفكير فيه. لكن، بالطبع، لا أعتقد أن الاعتقاد التأليهي باطل، وبالتالي لا تعطيني تصريحات فرويد وماركس دليلًا مبطلًا له. قد يكون ما يقدمانه دليلًا مُبطِلًا إذا صدَّقته، لكنهما لم يقدما أي سبب على الإطلاق لتصديقه. يمكن للمرء بسهولة الاطلاع على آراء فرويد، هنا، والاستمرار في قبول الاعتقاد التأليهي بعقلانية تامة أيضًا"[1].

وإذا كان كوين قد ذهب إلى أن النظريات الإسقاطية بشأن الاعتقاد التأليهي هي مُبطِلات لهذا الاعتقاد إذا نجحت في تفسيره، فإن بلانتينجا يعتقد أن زعم كوين بشأن الاعتقاد التأليهي يتضمن ثلاث افتراضات على النحو الآتي:

(ك١) وجود الله ليس ضروريًّا لتفسير الاعتقاد التأليهي، ومن ثم،

(ك٢) وجود الله غير فعال من الناحية التفسيرية، وبالتالي،

(ك٣) هذا سبب وجيه للاعتقاد بعدم وجود الله.

ويرى بلانتينجا أنه ليس من الواضح ما إذا كان كوين يتبنى هذه الافتراضات، أم أنه يطرحها فقط للنقاش كافتراضات محتملة[2]. ويرى أيضًا أن هذه الافتراضات تنطوي على العديد من المشكلات الخطيرة. ولكي يُظهر بلانتنيجا هذا الأمر يقول:

"أولًا: وفقًا للنظرية المعنيَّة، يفترض المؤمنون بالله وجود الله (توجد فينا آلية لتشكيل المعتقدات والحفاظ عليها، تتضمن إسقاط صفات الأفراد أو مجتمعاتهم إلى الخارج، وافتراض وجود الكيانات التي تتجسد فيها تلك الصفات المسقطة) ومع ذلك، من الواضح أن الإيمان بوجود الله ليس ناتجًا عن عملية افتراض، فالمؤمنون بالله لا يفترضون عادةً وجوده، تمامًا كما أن الذين يؤمنون بوجود أشخاص آخرين أو أشياء مادية لا يفترضون مسبقًا وجود مثل هذه الأشياء. فالافتراض عملية مرتبطة بالنظريات العلمية، أي افتراض وجود كيانات معينة (على سبيل المثال،

---

(1) Ibid.

(2) Ibid., 300.

الكواركات أو الغلوونات) كجزء من نظرية تفسيرية. وأما المسيحيون، على سبيل المثال، فلا يطرحون عادةً وجود الله باعتباره تفسيرًا لأي شيء على الإطلاق"[١].

ثانيًا: حتى إذا كان من الممكن تفسير وجود الاعتقاد التأليهي دون افتراض وجود الله، قد يظل التأليه في حد ذاته مفسرًا لكثير من الأمور الأخرى. فالتأليه لا يُستخدم لتفسير الاعتقادي التأليهي فحسب، بل يُستخدم أيضًا لتفسير الضبط الدقيق للكون، ووجود الافتراضات والخصائص والكيانات المجردة الأخرى، وأصل الحياة، ووجود الأخلاق وطبيعتها، وموثوقية ملكاتنا المعرفية، فضلًا عن أشياء أخرى كثيرة. وبالتالي، كون التأليه غير ضروري تفسيريًّا في ما يتعلق بالاعتقاد التأليهي، لا يعني بحد ذاته أنه غير ضروري تفسيريًّا بوجه عام، فلا يوجد حتى الآن مبرر كاف لاستنتاج (ك٢) من (ك١).

ثالثًا: بالنظر إلى (ك٢)، لماذا يجب أن نستنتج (ك٣)؟ وفقًا لمبدأ أوكام الشهير، لا ينبغي افتراض وجود كيانات إضافية دون ضرورة. وعند فهم هذا المبدأ على أنه دعوة لعدم افتراض وجود كيانات معينة ما لم تكن توجد حاجة فعلية إليها، فإنه يعكس منطقًا عمليًّا وحسًّا عامًّا قويًّا. لكن التأليه لا يُقبَل عادة كفرضية تفسيرية. فإذا افترضنا أن الاعتقاد التأليهي بالفعل غير فعال من الناحية التفسيرية، فلماذا ينبغي أن يُعَد ذلك نقصًا فيه، أو مؤشرًا على ضعف قيمته المعرفية؟ إذا لم يكن الاعتقاد التأليهي مطروحًا في المقام الأول كفرضية تفسيرية، فلماذا يؤخذ عليه كونه غير فعال من الناحية التفسيرية، إن كان كذلك فعلًا؟ فالمعتقدات من قبيل "تناولت برتقالة على الإفطار" لا تُقبَل (عادة) كفرضيات تفسيرية، فهل ينبغي أن يُؤخذ افتقارها إلى التفسير على أنه نقطة ضدها أو سبب لإبطالها؟ لذلك من الصعب معرفة لماذا يُفترض أن يكون الاعتقاد التأليهي موضع شك لمجرد افتقاده لقيمة تفسيرية[٢].

ويستطرد بلانتنيجا قائلا: "في الواقع، يذهب الافتراض الثالث (ك٣) إلى ما هو أبعد من ذلك، فيعتبر أن القصور التفسيري لا يُضعف الاعتقاد التأليهي فحسب، بل يُعد دليلًا على بطلانه. لكن لماذا ينبغي أن نقبل بهذا الطرح؟ لنفترض (على خلاف الواقع) أن القصور التفسيري يُعد نقطة ضعف في الاعتقاد التأليهي،

---

(1) Ibid., 300-301.
(2) Ibid., 301.

فلماذا نستنتج من ذلك ضرورة إنكار وجود الله؟ ألن تكون اللا أدرية خيارًا كافيًا؟ ربما لا أعرف أي ظواهر لا يمكنني تفسيرها إلا من خلال افتراض وجود حياة ذكية على كواكب أخرى. هل يتعين عليّ إذًا أن أنكر وجود مثل هذه الحياة؟ ألن تكون اللا أدرية البسيطة كافية؟"[1].

النقطة الجوهرية التي يوضحها بلانتينجا هنا، هي أن الاعتقاد التأليهي وفقًا للنموذج الخاص به (وفي الواقع أيضًا) لا يُقبل عادةً كفرضية تفسيرية. فالمؤمن لا يُقيم ما يبدو عليه العالم (بما في ذلك وجود الاعتقاد التأليهي نفسه) ثم يقترح وجود الله كأفضل تفسير لهذه الظواهر. إذا كانت هذه هي الطريقة التي يفكر بها، فإن كون الاعتقاد التأليهي غير فعال تفسيريًّا (إذا كان كذلك بالفعل) في ما يتعلق بنطاق معين من المعطيات قد يكون أمرًا ذا صلة. لكن الأمر ليس كذلك، ففي هذا النموذج يؤمن المؤمن بالله بطريقة أساسية دون أن يبني إيمانه على حجج مستمدة من قضايا أخرى، ودون أن يقدم هذا الإيمان كتفسير لشيء ما. ولذلك لا يشكل وجود تفسيرات أفضل لبعض الظواهر -إن وجدت بالفعل- حتى الآن سببًا لإثارة أي شك في الإيمان بالله[2].

ولكي يوضح بلانتينجا هذا الرأي يستخدم التشبيه الآتي: "أتقدم بطلب للحصول على زمالة الوقف الوطني للعلوم الإنسانية، وبعد أن أدركت أنني لست مؤهلًا حقًّا، أعرض عليك خمسمئة دولار لكتابة خطاب توصية رائع وإن كان غير دقيق. ربما، كما يقولون، لكل شخص ثمن، وثمنك -كما اتضح- يستحق بالتأكيد أكثر من خمسمئة دولار. أنت ترفض ساخطًا، وتكتب رسالة عنيفة إلى رئيس قسمي، وتختفي الرسالة في ظروف غامضة من مكتبه. ومع ذلك، أفاد أحد أكثر أعضاء القسم احترامًا بأنه رآني أحاول على ما يبدو الدخول إلى مكتبه من خلال نافذة من الطابق الثاني، حيث لديَّ الوسائل والدافع والفرصة. علاوة على ذلك، من المعروف أنني فعلت هذا النوع من الأشياء من قبل. لكنني أتذكر بوضوح أنني كنت في نزهة منعزلة في الجبال طوال فترة الظهيرة التي اختفت فيها الرسالة. أعتقد أنني لم أُخفِ تلك الرسالة، وهذا الاعتقاد له ما يبرره بالنسبة إليّ. لكنني لا أقترح اعتقادي بأنني بريء، أو أنني قمت بجولة في الغابة، كتفسير للحقائق التي تشير إلى

---

(1) Ibid., 301-302.
(2) Ibid., 302.

ذنبي. أنا لا أقترح براءتي أو الذهاب في نزهة على القدمين كتفسير لأي شيء على الإطلاق: هذه المعتقدات تدخل بِنيتي العقلية بطريقة مختلفة تمامًا. لنفترض إذًا أن هذه المعتقدات، في الواقع، غير فعالة من الناحية التفسيرية، وأضف، إذا شئت ذلك، أنه يوجد تفسير جيد (إذا كان خاطئًا) لزعم "س" بأنه رآني أحاول الدخول إلى المكتب: أي أنني أخذت الرسالة لتجنب المزيد من الإحراج. هل القصور التفسيري لمعتقداتي يشكل دليلًا مبطلًا لها؟ بالطبع لا. لم يحدث اقتراحها كتفسيرات. والأمر بالمثل بالنسبة إلى الاعتقاد التأليهي"[١].

ويخلص بلانتينجا إلى القول بأنه إذا أخذنا ادعاءات كوين كما هي، فمن الواضح أنها لا تُظهر أن الفرضيات الإسقاطية تقدم دليلًا مبطلًا للاعتقاد التأليهي[٢].

٣-التعددية الدينية: دفاع بلانتينجا عن الحصرية الدينية

يذهب بلانتينجا إلى القول بأن التنوع الديني، ويقصد به حقيقة وجود مجموعة متنوعة من المعتقدات والتقاليد الدينية، يثير مشكلة مفادها أن الباحثين عن الحقيقة المخلصين وذوي القدرات المعرفية المتساوية يتوصلون إلى استنتاجات متباينة على نطاق واسع بشأن طبيعة الحقيقة المطلقة وربما الإلهية. فالحصريون دينيًّا يعتقدون أن معتقداتهم الدينية حقيقية، ومن ثم فإن جميع المعتقدات المخالفة باطلة. في حين يزعم منتقدو الحصرية أنها تنم عن الغطرسة والتعصب، ويبدو أيضًا أنها تجعل من التحول الأخلاقي والروحي ضربًا من الحظ. فإذا كنتَ قد ولدت لأسرة مسيحية محافظة تقطن في أمريكا، فمن الأرجح أنك سوف تصبح مسيحيًّا، لكنك إذا كنتَ قد ولدت في الهند، على سبيل المثال، فأنت على الأرجح ستكون هندوسيًّا (أو في الصين ملحدًا، أو في الأردن مسلمًا، أو في كاليفورنيا ميكي ماوس)[٣].

---

(1) Ibid.

(2) Ibid.

(3) Kelly James Clark, *"Pluralism and Proper Function,"* in *Alvin Plantinga*, ed. Deane-Peter Baker (New York: Cambridge University Press, 2007), 166.

يشير بلانتينجا إلى أن بالإمكان ملاحظة كيف يُستخدم التنوع الديني Religious Diversity، على اعتباره مفندًا لمبرر المرء بشأن المعتقدات الدينية الحصرية في دفاع جون هِك (١٩٢٢- ٢٠١٢) John Hick عن التعددية الدينية Religious Pluralism، والذي ينص على أن المعتقدات الدينية المتنوعة فعالة بنفس القدر في عملية التحول الأخلاقي والروحي. فيدَّعي هِك أنه توجد مجموعة متنوعة من التقاليد الدينية، كل منها، بقدر ما يمكننا القول، يؤتي ثماره بنفس القدر فيما يخص تغيير حياة البشر. وعلى الرغم من أنها تختلف في توصيفها لكلٍّ من هدف الحياة البشرية والعمليات الضرورية لتحقيق مثل هذه الأهداف، تبدو كل عملية من العمليات المتباينة مع ذلك مناسبة تمامًا للهدف الخاص بتحويل حياة البشر من التمركز حول الذات Self-centeredness، إلى ما يطلق عليه "التمركز حول الحقيقة" Reality- centeredness . وهذا الهدف له أسماء عدة، أبرزها الخلاص Salvation والتحرر Liberation وتحقيق الذات Fulfillment والتنوير الروحي Enlightenment. ويدَّعي هِك أن الأسس المعرفية للمعتقدات الدينية المتنوعة (التجربة الدينية عادةً) تعتبر تقريبًا متطابقة: فلا تتمتع المسيحية ولا المعتقدات المغايرة بأي ميزة معرفية. ونتيجة للطبيعة البرجماتية للتحول (تبدو جميع الأديان ناجحة بنفس القدر في التحول) والأسس المعرفية المتطابقة المزعومة لمعتقداتهم المتنافسة، يؤكد هِك أنه لا يمكن لأي معتقد ديني أن يعطي لنفسه الحق في ادعاء الحصرية أو التفوق الأخلاقي أو الروحي أو المعرفي، وأن الادعاء بخلاف ذلك يعد من قبيل الغطرسة والتعصب والتعسف ولا يمكن تبريره[١].

وانطلاقًا من الرأي السابق لهِك يتساءل بلانتينجا قائلًا: هل معرفة حقائق التعددية الدينية تُشكل دليلًا مبطلًا للاعتقاد المسيحي؟ وفي الحقيقة هذا التساؤل ناجم عن وعيه بالحقيقة التي مفادها أن العالم يضم مجموعة متنوعة من الديانات، يختلف بعضها عن بعض اختلافًا كبيرًا.

هذا التنوع الديني دفع بلانتينجا إلى أن يتساءل: أليس من التعسف، أو من غير العقلاني، أو غير المبرر، أو حتى من القمع والإمبريالية، أن يؤيد المرء إحدى

---

(1) Ibid., 166-167.

هذه الديانات على حساب كل الديانات الأخرى؟[١] ويصف بلانتينجا مشكلة التعددية من خلال عبارة لكاتب القرن السادس عشر جين بودين (١٥٢٩- ١٥٩٦) Jean Bodin مفادها أن كل دين تدحضه جميع الأديان الأخرى، وعبارة لجون هِك مفادها أنه في ضوء معرفتنا المتراكمة لديانات العالم العظيمة الأخرى، قد أصبحت "الحصرية المسيحية" غير مستساغة لدى الجميع، باستثناء أقلية من المتشددين العقائديين[٢].

ومن الجدير بالذكر أن بلانتينجا يطرح هذه المشكلة بطريقة داخلية وشخصية، فتناوله لها يستند إلى اثنتين من القضايا أو المعتقدات المسيحية التي يؤمن بها، وهما:

(١) خلق الله العالم، وهو كائن شخصي قادر على كل شيء، كلي المعرفة، وكامل الخير (يؤمن بالمعتقدات، وله أهداف وخطط ونوايا، ويمكنه العمل لتحقيق هذه الأهداف).

(٢) يحتاج البشر إلى الخلاص، وقد أتاح الله طريقة فريدة للخلاص من خلال تجسد ابنه الإلهي وحياته وموته الكَفَّاري وقيامته[٣].

ويذهب بلانتينجا إلى القول بأن الكثير من البشر لا يؤمنون بهذه المعتقدات، ويطرح ثلاث استجابات بشرية توضح ذلك. أولا: يوجد أناس يقبلون القضية الأولى ويرفضون الثانية: إنهم مؤمنون غير مسيحيين. ثانيًا: يوجد أناس لا يقبلون هاتين القضيتين، ولكنهم مع ذلك يؤمنون بأن وراء العالم الطبيعي شيئًا ما، من قبيل أن رفاهية الإنسان وخلاصه يعتمدان على البقاء في علاقة صحيحة معه. ثالثًا: في

---

(1) Alvin Plantinga, *"Pluralism: A Defense of Religious Exclusivism,"* in *The Rationality of Belief and the* Plurality of Faith: Essays in Honor of William P. Alston, ed. Thomas D. Senor (Ithaca, NY: Cornell University Press,1955), 191-192.

(2) Alvin Plantinga, *Warranted Christian Belief*, 356; Idem, *Knowledge and Christian Belief*, 95

(3) Alvin Plantinga, *"Pluralism: A Defense of Religious Exclusivism,"* 192; Idem, *Warranted Christian Belief*, 356; Idem**,** *Knowledge and Christian Belief*, 95.

الغرب ومنذ عصر التنوير، على أي حال، يوجد أشخاص –يمكن لنا أن نطلق عليهم أصحاب المذهب الطبيعي- لا يؤمنون بأي من هذه الأمور الثلاثة[١].

هذا الوضع جعل بلانتينجا يتساءل قائلًا: "إن مشكلتي مفادها أنه عندما أصبح مدركًا حقًّا لهذه الطرائق الأخرى للنظر إلى العالم، هذه الطرائق الأخرى للاستجابة الدينية للعالم، ما الذي يجدر بي فعله؟ أي ضرب صحيح من السلوك يجب اتخاذه؟ أي ضرب من التأثير يجب أن يحدثه هذا الوعي في المعتقدات التي أومن بها وفي قوة إيماني بها؟ إن سؤالي هنا هو: كيف أفكر في التنوع الديني العظيم الذي يعرضه العالم في الواقع؟ أيمكنني منطقيًّا أن أبقى متمسكًا بواحدة فقط من هذه الديانات، رافضًا الديانات الأخرى؟... إن السؤال الذي أقصد طرحه هنا هو: ماذا يعني الوعي بالتنوع الديني أو ما الذي يجب أن يعنيه بالنسبة إلى معتقداتي الدينية؟"[٢].

وإذا كان الوعي الجديد بالتنوع الديني، في تصور بعض الفلاسفة، يمثل أزمة فكرية، وثورة على التصورات الدينية التقليدية، وتطورًا فكريًّا يضاهي في أهميته الثورة الكوبرنيكية واكتشاف أصولنا الحيوانية، فإن بلانتينجا يقر بوجود هذا الوعي، وهذا ما نلاحظه من قوله:

"لا شك أن في ذلك بعض الحقيقة على الأقل. بالطبع، الحقيقة هي أن العديد من المسيحيين واليهود الغربيين يعرفون أنه توجد ديانات أخرى وأنه ليس كل الناس يدينون بدينهم... ومع ذلك، في الأعوام الأخيرة، ربما بات الكثير منا نحن الغربيين المسيحيين مدركًا للتنوع الديني في العالم. لعلنا تعلمنا المزيد عن أصحاب الانتماءات الدينية الأخرى، وقد وجدنا أنهم يظهرون ما يشبه التقوى الحقيقية والورع والروحانية، ولعل الجديد هو وجود تعاطف أكثر انتشارًا مع الأديان الأخرى، والميل إلى رؤيتها على أنها أكثر قيمة، باعتبارها تحوي المزيد على سبيل الحقيقة، مع شعور جديد بالتضامن مع معتنقيها"[٣].

---

(1) Ibid.; Alvin Plantinga, *Warranted Christian Belief*, 356-357; Idem**,** *Knowledge and Christian Belief*, 95.

(2) Alvin Plantinga, *"Pluralism: A Defense of Religious Exclusivism,"* 192-193.

(3) Ibid., 193-194; Alvin Plantinga, *Warranted Christian Belief* , 357.

يشير بلانتينجا إلى أن الوعي بالتنوع الديني قد يؤدي إلى استجابات متعددة ومختلفة، من بينها أن يستمر المرء في تصديق ما كان يؤمن به طوال الوقت، فهو على وعي بهذا التنوع ولكنه يواصل الإيمان (أي يعتبره صحيحًا) بقضايا مثل القضيتين ١ و٢ السابق ذكرهما، وبالتالي يعتبر أن أي معتقدات، دينية أو غير ذلك، لا تتوافق معهما باطلة. ويُسمي بلانتينجا هذه الممارسة بـ"الحصرية" Exclusivism، فالحصري Exclusivist بالنسبة إليه هو الشخص الذي يؤمن بأن مبادئ أو بعض مبادئ دين بعينه صحيحة في الواقع، كما يؤمن، بطبيعة الحال، بأن أي قضايا، بما فيها المعتقدات الدينية الأخرى، لا تتوافق مع تلك المبادئ، تُعتبر كاذبة[١].

ومن الجدير بالذكر أن بلانتينجا في تحديده لمفهوم الحصري، يؤكد أن الحصري لا يؤمن بقضايا مثل القضيتين ١ و٢ فحسب، وبأن أي قضية تتعارض معهما كاذبة، بل إنه أيضًا يفي بشرط آخر (ج) يصعب تحديده بدقة وبالتفصيل. وفي رأيه يكفي أن نقول إن "ج" تتضمن: "١" أن تكون مدركًا تمامًا للأديان الأخرى، و"٢" أن تعرف أن في هذه الأديان كثيرًا من المظاهر التي تبدو كأنها تقوى وورع حقيقيان، و"٣" أن تعتقد بأنك لا تعرف أي حجج من شأنها بالضرورة إقناع جميع المعارضين أو أكثرهم صدقًا وذكاءً[٢].

ويدافع بلانتينجا بشدة عن الحصرية في أكثر من موضع في كتاباته، ويتمثل رده على التنوع الديني في الزعم المباشر بأن المعتقدات المسيحية حقيقية، وأن جميع المعتقدات غير المتوافقة معها باطلة بالتبعية[٣]. ولكي يثبت صحه زعمه هذا، نجده يسعى لتفنيد الاتهامات المختلفة التي تقول بأن القضيتين ١ و٢ غير مسوغتين عندما يكون المرء مدركًا للتنوع الديني[٤].

---

(1) Ibid., 194, Alvin Plantinga, *Warranted Christian Belief*, 357; Idem**,** *Knowledge and Christian Belief* , 96.

(2) Alvin Plantinga, *"Pluralism: A Defense of Religious Exclusivism,"* 196.

(3) Hossein Houshmand, *A Reading in Rreligious Epistemology*, 68.

(4) Kelly James Clark, *"Pluralism and Proper Function,"* 171.

وبعبارة أخرى، يرفض بلانتينجا ادعاء أتباع التعددية الدينية الذي مفاده أن الحصرية في حد ذاتها تمثل أو تنطوي على ضرب من الرذيلة: فهي خاطئة أو باعثة على الأسى. ويزعم بأنها لا تستلزم الفشل المعرفي أو الأخلاقي، وعلاوة على ذلك، يزعم بأنها أمر لا مفر منه تمامًا، بالنظر إلى وضعنا البشري. ويرى أن هذه الاعتراضات لا تتعلق بصدق القضية ١ أو ٢ ولا بصدق أي قضية أخرى قد يقبلها شخص ما بهذه الطريقة الحصرية (على الرغم من تقديم اعتراضات من هذا النوع أيضًا)، فهي بدلًا من ذلك موجهة إلى ملاءمة أو صواب الحصرية[١].

٤-رد بلانتينجا على الاعتراضات الموجهة ضد أنصار الحصرية الدينية

لمعرفة موقف بلانتينجا من الاعتراضات الموجهة ضد أنصار الحصرية الدينية، علينا أن نتناول النقاط الآتية:

أ- الشرطية التاريخية Historical Conditionedness

يلخص الفيلسوف الأمريكي كيلي جيمس كلارك (١٩٥٦-) Clark Kelly James هذا الاعتراض على النحو الآتي:

"تقوم الحجة المعروفة بـ"الشرطية التاريخية" على افتراض مفاده أننا لو كنا وُلدنا في زمان أو مكان مختلف لما كنا مسيحيين أو ربما حتى ما كنا مؤمنين، والادعاء الجوهري في هذه الحجة هو أن حياتنا العقائدية محكومة بالظروف والمصادفات التاريخية المشروطة، أكثر من كونها محكومة بالوصول الخاص إلى الحقيقة المتعالية غير المشروطة. ومن ثم، فإن هذه الحياة العقائدية تُعد، في هذا السياق، غير مبررة أو غير عقلانية. وبقدر ما يكون الاعتقاد المسيحي خاضعًا لهذا التشكيل التاريخي المشروط، فإنه يُعتبر، بناءً على ذلك، غير مبرر معرفيًا أو غير عقلاني. إن هذه الحجة لا تدعي دحض الاعتقاد المسيحي (القضيتان ١ و٢)، بل تزعم بالأحرى بأنها تقوض عقلانية هذا الاعتقاد"[٢].

---

(1) Alvin Plantinga, *"Pluralism: A Defense of Religious Exclusivism,"* 194-195.

(2) Kelly James Clark, *"Pluralism and Proper Function,"* 171

وتجدر بنا الإشارة إلى أن هذا الاعتراض الذي يتعلق بالتوزيع الجغرافي لأتباع التقاليد الدينية المختلفة قد طوره جون هِك، حين زعم بأن الولاء الديني في الغالبية العظمى من الحالات يعتمد على مصادفة الولادة[١]. وعلى هذا الأساس، ذهب إلى القول بأنه في نحو ٩٨% أو أكثر من الحالات في العالم، يعتمد الدين الذي يعتنقه الأشخاص على مكان الميلاد، فالشخص الذي يولد لعائلة مسلمة تعيش في بلد مسلم أو الذي يولد لعائلة مسلمة تعيش في بلد غير مسلم، سيكون مسلمًا على الأرجح، وكذلك الأمر بالنسبة إلى الشخص الذي يولد لعائلة مسيحية سيكون على الأرجح مسيحيًّا. ونفس الشيء بالنسبة إلى اليهود والهندوس والسيخيين والبوذيين والطاويين. فمن غير المحتمل تمامًا بالنسبة إلى الشخص الذي يولد لعائلة بوذية في التبت أن يعتنق المسيحية أو الإسلام، كما أنه من غير المحتمل بالنسبة للشخص الذي يولد لعائلة مسلمة في إيران أو في باكستان أن يعتنق المسيحية، أو البوذية، وهكذا في جميع بلدان العالم[٢].

ويجادل هِك بأن على المرء الذي يؤمن بالحصرية بعد أن أدرك أن معتقداته الدينية كانت ستختلف لو نشأ في بيئة مختلفة، أن يطبق "تأويل الشك" Hermeneutic of Suspicion تجاه هذه المعتقدات. ويرد الحصريون على زعمه بطرح ادعاء مفاده أن هذا النوع من الاعتراض، إذا كان مقنعًا، يوصي بتأويل مماثل تجاه المعتقدات التي لا تُرى عادةً على أنها تستحق مثل هذا الشك. ويستخدم بيتر فان إنفاجن (١٩٤٢-) Peter van Inwagen هذه المناورة عن طريق القياس السياسي Political Analogy، فهو يشير إلى أن الآراء السياسية للمرء غالبًا ما تستند بقدر كبير إلى نشأته، لكنه يرى أن هذا ليس سببًا للشك في مثل هذه المعتقدات. وقد طور ألفين بلانتينجا ردًّا مشابهًا يكون فيه الاعتقاد التعددي هو الهدف نفسه، فذهب إلى القول بأن التعددية ليست، ولم تكن، شائعة على نطاق واسع

---

(1) Nathan L King, "*Religious Diversity and its Challenges to Religious Belief," Philosophy Compass 3, no. 4 (2008)*: 843. https://doi.org/10.1111/j.1747-9991.2008.00149.x

(2) John Hick, *The New Frontier of Religion And Science: Religious Experience, Neuroscience and the Transcendent*, (New York: Palgrave Macmillan, 2006), 146.

في العالم بأسره، فإذا كان التعددي Pluralist قد ولد في مدغشقر، أو في فرنسا في العصور الوسطى، فمن المحتمل أنه لم يكن ليصبح تعدديًّا. ولا يترتب على ذلك، كما يشير بلانتينجا، أن اعتقاد التعددي غير عقلاني أو غير مبرر أو غير موثوق به أو تعسفي. ولكن إذا لم يكن الأمر كذلك، فلن ينتج مثل هذا الاستنتاج من المسببات المقابلة لمعتقدات الحصري[١].

وعلى هذا الأساس، يرى بلانتينجا أن على الحصري رفض هذه الحجة لأن لديه (الحصري) أسبابًا قوية تدفعه لعدم قبولها. أولًا: هذه الحجة شأن العديد من الحجج الشكية، تشكك في نفسها إذا شككت في أي شيء، فتقع في الفخ الذي تنصبه للآخرين. ولتوضيح هذا يقول: "دعونا نتأمل مقدمتها الرئيسة:

(م ر) لنفترض أن الشخص (س) يتبنى معتقدًا دينيًّا أو فلسفيًّا (ب): إذا كان (ب) غير مقبول لدى (س) لو كان قد وُلد في مكان آخر أو زمن آخر، فإن هذا المعتقد يكون حينئذ غير مبرر بالنسبة إلى هذا الشخص.

لكن لنفترض أنني أقبل المقدمة الرئيسة (م ر)، وهي في حد ذاتها معتقد ديني أو فلسفي. أليس واضحا أنه توجد أزمنة وأماكن إذا ولدت فيها لم أكن لأقبلها؟ لو كنت ولدت في غينيا الجديدة في القرن التاسع عشر، أو في فرنسا في العصور الوسطى، أو في اليابان في القرن السابع عشر، لما قبلت (على الأرجح) بهذه المقدمة الرئيسة (م ر)، لذلك وفقًا لـ(م ر)، فإن (م ر) ليس لها ما يبررها بالنسبة إليّ، وبمجرد أن أرى أنه لا يوجد ما يبررها، فسيكون لدي دليل مبطل لها، لذلك لا ينبغي لي أن أصدقها. قد تعتقد أن هذه الحجة مجرد خدعة جدلية سيئة، لا تستحق أن تؤخذ على محمل الجد. حسنًا، أنا أخالفك الرأي: إذا رأيت أن الاعتقاد يدحض نفسه حقًّا، فعندئذ لا يمكنك التمسك بهذا الاعتقاد بنحو منطقي"[٢].

وبينما يقر بلانتينجا ببساطة بالحقيقة الواضحة للشرطية التاريخية، ينكر أهميتها المعرفية المزعومة؛ ويشير إلى أنه من الصحيح عمومًا أنه إذا كان الناس قد وُلدوا في أزمنة وأماكن تختلف عن الأزمنة والأماكن التي وُلدوا فيها، لكانوا

---

(1) Nathan L King, "*Religious Diversity and its Challenges to Religious Belief,"843.*

(2) Alvin Plantinga, *Warranted Christian Belief*, 348.

آمنوا بأشياء مختلفة. لكنه يمضي ليشير إلى أنه لا توجد عواقب معرفية مدمرة تنتج عن قبول فكرة الشرطية التاريخية[١]. وهذا هو السبب الثاني الذى أدى ببلانتنيجا إلى رفض هذه الحجة، ويوضحه على النحو الآتي:

"لو كان أينشتاين قد ولد في القرن الثامن عشر، لما كان اعتقد بالنسبية الخاصة؛ فلم يكن شيء وقتئذ يوحي بالنسبية الخاصة أو يدل عليها. يعتقد الكثيرون الآن أنه من الخطأ معاملة شخص ما بالكراهية أو الازدراء أو اللا مبالاة لمجرد أنه ينتمي إلى عرق مختلف: لكن آراءهم ليست غير مبررة تلقائيًّا لمجرد أنهم ربما كانوا يعتقدون بخلاف ذلك إذا نشأوا في ألمانيا النازية أو إسبرطة القديمة. ربما وجب أن نعتقد، بدلًا من ذلك، بأنهم إذا كانوا قد نشأوا في ألمانيا النازية أو إسبرطة القديمة، لما عرفوا شيئًا مما يعرفونه بالفعل الآن"[٢].

وبالإضافة إلى ذلك، يرى بلانتينجا أن المبرر متعلق بالظروف، فبعض الظروف يستدعي منحه والبعض الآخر ليس كذلك. ويبدو ذلك واضحًا من قوله: "ومن هنا كان من الممكن أن أكون في ظروف أخرى، ظروف لم تكن ستمنح مبررًا لبعض المعتقدات التي أعتنقها في الواقع. ولو تعرضت في الحقيقة لبعض هذه الظروف، لما كنت سأتمسك بتلك المعتقدات على الإطلاق. في الوقت الحاضر، على سبيل المثال، أعتقد أنني أسمع غرابًا ينعق في الغابة خلف منزلي، ولو كنت خارج المدينة، لما كنت لأصدق ذلك. بيد أن هذه الحقيقة لا علاقة لها البتَّة بأن معتقدي الحالي يفتقر إلى المبرر"[٣]. ويخلص بلانتينجا إلى أن الفكرة الأساسية لحجة الشرطية التاريخية خاطئة رغم إقراره بأن مقدمتها الرئيسة في ظل الظروف الحالية قوية للغاية[٤].

ومما سبق يتضح لنا أن بلانتينجا قد قدم تحليلًا نقديًّا لحجة التشكيل التاريخي التي تقول بأن الاعتقاد الديني يتشكل لدى المرء بفعل المكان والزمان الذي ولد فيه. وقد رفض هذه الحجة استنادًا إلى أمرين، الأول أنها تقود إلى الشك

---

(1) Kelly James Clark, *"Pluralism and Proper Function,"* 171.

(2) Alvin Plantinga, *Warranted Christian Belief*, 348.

(3) Ibid.

(4) Ibid., 348-349.

في كل الاعتقادات، ويمكن تطبيقها على أي فكرة أو مبدأ، بما في ذلك الاعتقاد بأن فكرة التشكيل التاريخي نفسها صحيحة. وأما الأمر الثاني فهو قناعته بأن وجود المرء في ظروف متغيرة لا يعني أن الاعتقاد الحالي خاطئ أو غير مبرر. لكن بلانتنيجا –في رأيي- لا يضع في الاعتبار أن أتباع الأديان الأخرى يمكنهم تبني هذا النمط من التفكير، وحينها سيكون عليه أيضًا أن يقر بصحة معتقداتهم استنادًا إلى المبدأ الذي يعتنقه هو، وإلا فسيكون موقفه تعبيرًا عن تحيز معرفي، من خلال توظيفه للمبدأ بطريقة انتقائية تفقده موضوعيته واتساقه الفلسفي.

ب- التعسف الأخلاقي Moral Arbitrariness

يستمر بلانتينجا في دفاعه عن الحصرية الدينية، لذلك نراه يرفض بشدة كل التهم التي وُجهت إلى المدافعين عنها، وتتمثل هذه التهم في الإمبريالية والقمع والغطرسة، فضلًا عن نوع من الأنانية أو التعسف الموجه لخدمة المصلحة الذاتية. ومع ذلك يعترف بلانتينجا، فيما يتعلق بالإمبريالية والقمع، بأن الحصرية العقائدية Doctrinal Exclusivism يمكن أن تلعب دورًا في أنواع مختلفة من القمع والإمبريالية. غير أنه يضيف أن هذه المِحَن لا تنتج عن الحصرية نفسها، بل بسبب إساءة استخدامها[١].

ويبدو هذا الرأي واضحًا من قوله: "أستطيع القول إن بينكم من يرفض بعضًا مما أومن به، ولا أعتقد أنك بذلك تضطهدني، حتى لو كنت لا تعتقد أن لديك حجة من شأنها أن تقنعني. فمن الممكن أن تسهم الحصرية بطريقة ما في حدوث الاضطهاد، بيد أنها في حد ذاتها ليست قمعية"[٢].

وتجدر بنا الإشارة إلى أن بلانتينجا يتناول هاتين التهمتين بإيجاز شديد، ويعتقد أنهما في ظاهرهما غير قابلتين للتصديق تمامًا. وفي رأيه التهمة الأخلاقية الأكثر أهمية هي وجود ضرب من التعسف الذي يخدم المصلحة الذاتية، أو

---

(1) Nathan L King, "*Religious Diversity and its Challenges to Religious Belief,"* 839.

(2) Alvin Plantinga, *"Pluralism: A Defense of Religious Exclusivism,"* 197.

الغطرسة أو الأنانية، فيما يخص قبول قضايا مثل القضيتين ١ و٢ في ظل الشرط "ج"، فالحصرية مدانة بارتكاب خطأ أو عيب أخلاقي خطير[١]. ويعبر ويلفريد كانتويل سميث[٢] (١٩١٦-٢٠٠٠) Wilfred Cantwell Smith عن هذا النمط من التفكير في تقييمه للآراء المسيحية حول الحصرية[٣]، فيقول:

"طرحي هو أن... الموقف التقليدي للكنيسة قد وقف كحجر عثرة في طريق موقفها الأخلاقي التقليدي، وشجع في الواقع المسيحيين على معاملة الآخرين بطريقة غير أخلاقية. لقد علَّمنا المسيح التواضع، لكننا تعاملنا معهم بغطرسة... إن تهمة الغطرسة هذه خطيرة... إنه ليس من الممكن أخلاقيًّا، إلا على حساب عدم الإحساس أو الانحراف، الخروج فعليًّا إلى العالم ثم القول لإخواننا في الإنسانية المتدينين الأذكياء: ... نؤمن بأننا نعرف الله وأننا على حق. وأنتم تؤمنون أنكم تعرفون الله، لكنكم مخطئون تمامًا. لذا، يتبنى الحصري العقائدي معتقداته عن الله

---

(1) Ibid.; Alvin Plantinga, *Warranted Christian Belief* , 360.

(2) ويلفريد كانتويل سميث: واحد من أبرز المتخصصين في حقل الدراسات الدينية، وبالتحديد في فرعَي الأديان المقارنة والدراسات الإسلامية. نال شهادة الدكتوراه من جامعة برنيستون، وكان موضوع أطروحته هو "مجلة الأزهر: تحليل ونقد". واشتغل أستاذًا بجامعات مرموقة عدة أهمها جامعتا هارفارد وماكجيل. نُشرت له كتب كثيرة من أهمها: "الإسلام في التاريخ الحديث: التوتر بين الإيمان والتاريخ في العالم الإسلامي" (١٩٥٧م)، و "نحو لاهوت عالمي: الإيمان وتاريخ الأديان المقارن" (١٩٨٩م)، و"ما هو النص المقدس: منظور مقارن" (١٩٩٣م). لكن أهم كتبه على الإطلاق، الذي ارتقى إلى رتبة الكلاسيكيات، هو كتابه "معنى الدين وغايته: منظور جديد لتقاليد البشر الدينية (١٩٦٢م). وعلى الرغم من أنه كان مسيحيًّا شديد الإيمان، وقِسًّا بالكنيسة المشيخية، نمَّى اهتمامًا نشطًا بأتباع الأديان الأخرى ولا سيما الإسلام. وكان لأعماله تأثير كبير في الدراسات الدينية في أنحاء العالم، وقد ترجمت إلى كثير من اللغات ليست فقط الأوروبية، وإنما الآسيوية كذلك. طلال أسد، *قراءة في كتاب كلاسيكي حديث: معنى الدين وغايته لويلفريد كانتويل سميث*، ترجمة طارق عثمان (الكويت: مركز نهوض للبحوث والدراسات،٢٠٢٠)، ٤-٧.

(3) Nathan L King, "*Religious Diversity and its Challenges to Religious Belief,"* 839.

بهدف أن يكون ذا امتياز أخلاقي ومعرفي. وحسب المعترض، ينم هذا الموقف عن نوع من الغطرسة يستحق اللوم من الناحية الأخلاقية"[١].

ويرفض بلانتينجا هذا النقد بشدة، لأنه يرى أن الحصري الذي يؤمن بالقضيتين ١ و٢، يجب أيضًا أن يؤمن بأن أولئك الذين يؤمنون بشيء يتعارض معهما مخطئون ويشوب إيمانهم الخطأ، وأن هذا ليس أكثر من مجرد منطق بسيط. فضلًا عن ذلك يرى أن عليه أيضًا أن يؤمن بأن أولئك الذين لا يؤمنون كما يؤمن - أولئك الذين لا يؤمنون بـ١ ولا ٢، سواء أكانوا يؤمنون بما يناقضهم أم لا– يخفقون في الإيمان بشيء عميق ومهم وهو يؤمن به. لذلك عليه أن يرى نفسه مميزًا فيما يتعلق بالآخرين -أولئك الآخرين من كلا النوعين- وأن عليه أن يعتقد أنه يمتلك شيئًا ذا قيمة كبيرة وهم يفتقرون إليه. إنهم يجهلون شيئًا -شيئًا في غاية الأهمية– هو على علم به[٢].

ويمضي بلانتينجا موضحًا أن الموقف الذي يتبناه الحصري لا يجعله متغطرسًا أو مغرورًا، ويفضل بنحو تعسفي طريقته في فعل الأشياء على الطرائق الأخرى[٣].

ووفقًا لبلانتينجا، أمام الحصري ثلاثة خيارات فقط، أولًا: يمكنه الاستمرار في التمسك بإيمانه، ثانيًا: يمكنه التوقف عن إصدار الأحكام فلا يقبل عقائده الأساسية ولا ينكرها، ثالثًا: يمكنه قبول إنكارها. والخيار الثالث، كما يوضح بلانتينجا، يتبناه أتباع التعددية الدينية، أمثال جون هِك، الذين يرون أن قضايا مثل القضيتين ١ و٢ ونظائرهما من الأديان الأخرى باطلة تمامًا، على الرغم من أنها لا تزال تمثل بطريقة ما استجابات صحيحة للحق. ويبدو لبلانتينجا أن هذا الموقف ليس تقدمًا على الإطلاق فيما يتعلق بمشكلة الغطرسة أو الأنانية، فهو ليس مخرجًا من تلك المعضلة، لأنه إذا تبنى المرء هذا الخيار فسيكون حينئذٍ في نفس حالة

---

(1) Wilfred Cantwell Smith, *Religious Diversity* (New York: Harper and Row, 1976), 13-14, quoted in Nathan L King, " *Religious Diversity and its Challenges to Religious Belief*," 839.

(2) Alvin Plantinga, *"Pluralism: A Defense of Religious Exclusivism,"* 197; Idem, *Warranted Christian Belief*, 360-361.

(3) Ibid., 198; Alvin Plantinga, *Warranted Christian Belief*, 361.

الحصري[١]. وبعبارة أخرى، إذا أنكر المرء المعتقدات الحصرية وفقًا للخيار الثالث، فستكون حالته هي نفس حالة من يقبل الخيار الأول[٢].

وكي تتضح رؤية بلانتينجا هذه تتعين الإشارة إلى أنه يسمي الظروف التي يجد الحصري نفسه فيها -أي معرفة أن الآخرين لا يتفقون معه وأنه يفتقر إلى حجة غير دائرية بشأن المعتقدات المتنازع عليها- الظروف "ج". ووفقًا للمعترض، تبني الخيار الأول على الرغم من وجوده في الظروف "ج" يجعل الحصري مدانًا بالغطرسة. ومع ذلك، يرى بلانتينجا أنه إذا كان هذا النمط الفكري صحيحًا، فإنه يُظهِر أن بعض أتباع التعددية (وعلى الأخص، هِك) مدانون أيضًا بالغطرسة، فهذا التعددي يعتقد أن عقائد كل دين، والتي تُفسَّر على أنها مزاعم حول حقيقة مطلقة خارقة للطبيعة كما هي في حد ذاتها، خاطئة حرفيًّا. علاوة على ذلك، يعرف التعددي أن الحصريين يختلفون معه وأنه لا توجد حجة غير دائرية تُظهر أن التعددية صحيحة، ولكن إذا كانت هذه هي الحال، فإن التعددي يكون في الظروف "ج" فيما يتعلق بالمعتقدات المتنازع عليها. ويذهب بلانتينجا إلى القول بأن التعددي إذا استمر في التمسك بالتعددية في ظل هذه الظروف، لن يكون أقل إدانة بالغطرسة من الحصري. لذا، لا يمكن للحصري العقائدي أن يفلت من تهمة الغطرسة بمجرد تبني التعددية الخاصة بهِك (أو أيِّ وجهة نظر أخرى تتطلب منه تبنِّي إنكار معتقداته الدينية الحالية)[٣].

وينتقل بلانتينجا إلى تحليل الخيار الثاني المتمثل في حجب القضية المعنية، والذي وفقًا له يستطيع المرء أن يقول لنفسه: "بالنظر إلى أنني لا أستطيع أو لم أستطع إقناع هؤلاء الآخرين بما أومن به، فإن المسار الصحيح هنا يتمثل في عدم الإيمان بهذه القضايا وعدم إنكارها أيضًا". ويسمي بلانتينجا الشخص الذي يتبنى هذا الموقف بـ"التعددي الممتنع" Abstemious Pluralist، وذلك لأنه يعتقد أن

(1) Alvin Plantinga: *Warranted Christian Belief,* 361; Idem, *Pluralism: A Defense of Religious Exclusivism,* 197.

(2) Antony Das S. Devadhasan, *Can All Religions Live In Peace* (M.A. thesis, City University of New York, 2014), 36, ProQuest LLC.

(3) Nathan L King, "*Religious Diversity and its Challenges to Religious Belief,"* 840.

المسار الصحيح، في ظل الشرط "ج"، هو الامتناع عن الإيمان بالقضية المسيئة (المخالفة) والامتناع كذلك عن الإيمان بإنكارها[١].

ويرى بلانتينجا أن اتخاذ مثل هذا الموقف لا يُمَكِّن المرء من تجنب تهمة الغطرسة، وأنه لكي نبدأ في رؤية هذا الأمر علينا أن نفكر مليًّا في طبيعة الخلاف. ومن وجهة نظره، يكمن الخلاف في الموضوعات التي تتبنى مواقف قضوية متضاربة تجاه بعض القضايا، لتكن "ق" مثلًا. أبسط حالات الخلاف تتمثل في اعتقاد أحد الطرفين بـ"ق" وعدم اعتقاد الآخر بها. وفي هذه الحالة، يتناقض الطرفان. ويتمثل نوع آخر من الحالات ذات الصلة في اعتقاد أحد الأطراف بـ"ق" وامتناع الآخر عن إصدار حكم بشأنها. وفي هذه الحالة، يختلف الطرفان في الرأي. ووفقًا لتفسير بلانتينجا، تعتبر حالات المخالفة بمثابة خلافات، تمامًا مثل حالات التناقض. وهو يرى أنه إذا كان من الغطرسة أن يناقض المرء رأي الآخر دون أن يكون لديه حجة قاطعة تؤكد موقفه الخاص، فإنه من الغطرسة أيضًا أن يخالف رأي الآخر في ظل نفس الظروف. فهذا الخلاف ينطوي، ضمنيًّا على الأقل، على إدانة موقف الطرف الآخر تجاه القضية ذات الصلة. فالمخالف المتشكك يعتقد أنه من الأفضل أو الأكثر حكمة أن يتوقف عن إصدار حكم في ظل الظروف "ج"، لكنه يدرك أيضًا أنه ليست لديه حجة قاضية تُظهر أن التوقف عن إصدار حكم هو الموقف الصحيح في مثل هذه الظروف. وعلى هذا الأساس يرى بلانتينجا أن المتشكك مدان بنفس النوع من الغطرسة التي ينسبها إلى الحصري[٢].

وفي هذا الصدد يقول بلانتينجا: "كانت المشكلة بالنسبة إلى الحصري هي اضطراره إلى الاعتقاد بأنه يمتلك حقيقة افتقدها العديد من الآخرين. أما المشكلة بالنسبة إلى التعددي الممتنع هي اضطراره إلى الاعتقاد بأنه يمتلك مزية لا يمتلكها الآخرون، أو بأنه يتصرف بنحو صحيح في حين أن الآخرين ليسوا كذلك. فإذا كان الشخص، في ظل الظروف (ج)، متغطرسًا نتيجة لإيمانه بقضية لا يؤمن بها

---

(1) Alvin Plantinga, *"Pluralism: A Defense of Religious Exclusivism,"* 198-199; Idem, *Warranted Christian Belief*, 361-362.

(2) Nathan L King, "*Religious Diversity and its Challenges to Religious Belief,"* 840-841.

الآخرون، ألا يكون المرء، في ظل تلك الحالات التأملية، متغطرسًا بنفس القدر نتيجة لحجبه قضية لا يؤمن بها الآخرون؟"[١].

في الواقع، يعتقد بلانتينجا أن بمقدوره إظهار أن التعددي الممتنع الذي يوجه اتهامات بالغطرسة الفكرية ضد الحصرية قد وقع في شر أعماله. والسبب في اعتقاده هذا أنه لاحظ أن التعددي الممتنع يتبنى موقفًا يعبر عن التناقض الذاتي[٢]، لأنه يؤمن بالقضية الآتية:

(٣) إذا كان الشخص "س" يعلم أن الآخرين لا يؤمنون بالقضية "ق" (ويعلم أنه لا يمكنه إيجاد حجج تقنعهم بها)، فلا ينبغي له أن يؤمن بها.

وفي رأي بلانتينجا أن هذا الأمر أو شيء من هذا القبيل، هو ما يمثل أساس التهم التي يوجهها التعددي إلى المؤمن. ولتوضيح وجهة نظره هذه يقول:

"يدرك التعددي الممتنع من دون شك أن العديد لا يقبلون القضية ٣؛ وأفترض أنه يدرك أيضًا أنه من غير المحتمل أن يكون بإمكانه إيجاد حجج تقنعهم بتلك القضية. وبما أنه يقبلها، فإن المسار الصحيح بالنسبة إليه هو الامتناع عن الإيمان بها، أي التوقف عن تصديقها. وفي ظل الظروف القائمة- أي معرفته بأن الآخرين لا يقبلونها- لا يمكنه قبولها بنحو صحيح. وبالتالي فإذا كانت القضية ٣ صادقة فلا يمكن لأحد الإيمان بها دون أن يكون متعجرفًا"[٣].

ويستطرد بلانتينجا قائلًا: "إن القضية ٣ تكون إما صادقة وإما كاذبة، فإذا كانت صادقة فسأقع في دائرة الغطرسة إن آمنت بها، وإذا كانت كاذبة فسأقع في دائرة البطلان إن آمنت بها، لذا لا ينبغي لي أن أومن بها. ولذلك أميل إلى الاعتقاد بأن المرء لا يمكنه، في ظل الظروف القائمة، الإيمان بالقضية ٣ أو بأي قضية أخرى من شأنها أن تؤدي المهمة التي يرغب المعترض في إتمامها. ولا يمكن للمرء أن يجد هنا مبدأ ما يعتقد بموجبه بأن المؤمن يفعل الشيء الخطأ ويعاني خللًا

---

(1) Alvin Plantinga, *"Pluralism: A Defense of Religious Exclusivism,"* 199; Idem, *Warranted Christian Belief* , 362.

(2) Ibid., 200.

(3) Alvin Plantinga, *Warranted Christian Belief* , 363.

أخلاقيًّا ما- أي لا يمكن للمرء العثور على مبدأ، حسب ما يمكننا أن نوضح هنا، لا يقع ضحية لنفسه"[١].

وانطلاقًا من الرأي السابق، يتوصل بلانتينجا إلى أن التعددي الممتنع يناقض نفسه، وأن التهم الموجهة ضد القائل بالحصرية غير مقنعة وغير قابلة للتصديق[٢]. ويوضح لنا أن الغطرسة والأنانية يجري تطبيقهما بنحو أفضل على الأشخاص وليس على المعتقدات[٣]، فيقول:

"يجب أن أقر بوجود مجموعة متنوعة من الطرائق التي يمكنني من خلالها أن أكون، وقد كنت بالفعل، متغطرسًا وأنانيًّا من الناحية الفكرية. لقد وقعت بالتأكيد في هذه النقيصة في الماضي، ولا شك أنني لست متحررًا منها الآن. لكن هل أنا حقًّا متغطرس وأناني لمجرد الإيمان بأن ما أعرفه لا يؤمن به الآخرون، ولا يمكنني أن أظهر لهم أنني على حق؟ لنفترض أنني أفكر في الأمر، وأنظر بعناية في الاعتراضات قدر الإمكان، وأدرك أنني محدود وأنني آثم، وبالتأكيد لست أفضل من أولئك الذين أختلف معهم، إلا أنني أفترض أنه لا يزال من الواضح بالنسبة إليّ أن القضية المعنية صادقة. هل أتصرف بنحو غير أخلاقي عند مواصلة الإيمان بها؟ إنني متيقن من أن من الخطأ محاولة التقدم في مسيرتي المهنية من خلال قول الأكاذيب عن زملائي. أدرك وجود من يختلفون معي، وأنْ لا طريقة ناجعة في جميع الاحتمالات لأُظهر لهم أنهم مخطئون، ومع ذلك أعتقد أنهم مخطئون. إذا كنت أعتقد بذلك بعد تفكير متأنٍّ، إذا كنت أنظر بعين العطف قدر الإمكان إلى ادعاءات أولئك الذين يختلفون معي، إذا بذلت قصارى جهدي للتأكد من الحقيقة هنا، ولا يزال يبدو لي أن من غير الأخلاقي ومن الخطأ والحقارة أن أكذب بشأن زملائي لتعزيز مسيرتي المهنية، هل يمكنني حقًّا فعل ما هو غير أخلاقي من خلال مواصلة الإيمان كما في السابق؟ لا أستطيع أن أدرك كيف. إذا وجدت نفسك مقتنعًا، بعد تدبر وتفكير دقيق، بأن الموقف القضوي الصحيح الذي يجب تبنيه تجاه القضيتين ١ و٢ في مواجهة حقائق التعددية الدينية هو الإيمان بهما أو الامتناع عن الإيمان بهما،

---

(1) Ibid.

(2) Ibid.

(3) Kelly James Clark, *"Pluralism and Proper Function,"* 172.

فكيف يمكن أن تدان على نحو صحيح بالأنانية، إما بسبب الإيمان وإما بسبب الامتناع عن الإيمان، حتى لو علمت أن الآخرين لا يتفقون معك؟"[١].

وينتهي بلانتينجا إلى القول بأنه لا يستطيع معرفة كيف يمكن تأكيد التهمة الأخلاقية الموجهة ضد الحصرية، وإذا كان الأمر كذلك، فإن هذه التهمة لا توفر دليلًا مبطلًا للاعتقاد المسيحي[٢].

وإذا كان بلانتينجا حاول تفنيد تهمة الغطرسة من خلال الزعم بأنها سمة تُنسب إلى الأشخاص لا إلى المواقف، فإن ما نستخلصه من هذا الزعم هو أنه اعتقد أن الموقف المعرفي، سواء أكان حصريًّا أم تعدديًّا، لا يحمل في ذاته حكمًا أخلاقيًّا إلا بقدر ما يعكس من نوايا وسلوكيات من يعتنقه. وهذا يعني أنه يؤكد على ضرورة عدم الخلط بين الحصرية كادعاء معرفي والغطرسة كسلوك شخصي. لكن في رأيي أن الموقف الذي يُقصي الآخر يمكن أن يوصف بأنه متعجرف، لأنه يعكس علاقة غير متكافئة بين الذات والآخر تقوم على الإنكار بدلًا من الحوار. ومن ثم، لا تُشتق الغطرسة فقط من نبرة الخطاب أو سلوك الفرد، بل قد تكمن في طبيعة الموقف نفسه.

ج- الاعتراضات المعرفية على الحصرية

يتمثل الاعتراض المعرفي Epistemic Objection في الزعم بأن الحصري يؤمن بمعتقدات غير مبررة أو غير عقلانية[٣]. فمنتقدو وجهات نظر بلانتينجا على وجه التحديد، أو المعتقد المسيحي الحصري عمومًا، يشددون على أن الوعي بالتنوع الديني إما يلغي أمر المبرر وإما يتطلب من المسيحي تقديم دليل لا يمثل مصادرة على المطلوب بشأن معتقداته المسيحية. وعلى سبيل المثال يدَّعي جاري جتِنج (١٩٤٢- ٢٠٢٤) Gary Gutting أن المعتقَد المسيحي غير مبرر وغير أخلاقي لأنه (أ) لا يوجد دليل يدعم العقائد المسيحية على وجه التحديد، و(ب)

---

(1) Alvin Plantinga, *"Pluralism: A Defense of Religious Exclusivism,"* 200-201; Idem, *Warranted Christian Belief* , 363.

(2) Alvin Plantinga, *Warranted Christian Belief*, 363.

(3) Alvin Plantinga, *"Pluralism: A Defense of Religious Exclusivism,"* 201.

يوجد خلاف واسع النطاق حول المعتقد المسيحي. وهو يرى أن إيمان المرء بـالقضية (ق) لأن صدقها مدعوم من خلال حدسه يمثل أنانية معرفية تعسفية غير مبررة، ويمثل كذلك أنانية أخلاقية بنفس القدر. وبالتالي، يفتقر المسيحي الذي يؤمن بالحصرية في ظل وجود "أ" و"ب" إلى الأساس المعرفي والأخلاقي الكافي لدعم إيمانه المسيحي. ويدعي جي إل شلينبيرج J. L. Schellenberg أن وجهة نظر المرء لا تكون صحيحة إلا إذا كان بإمكانه تقديم تبرير لا يمثل مصادرة على المطلوب، ويُظهر خطأ الادعاءات المناهضة. ومع ذلك، كما يقول، فإنه بسبب طبيعة التنوع الديني، لا يمكن لأي مؤمن أن يقدم مثل هذا التبرير الموضوعي، وبالتالي فهو ليس في وضع يسمح له بادعاء صحة معتقداته[١].

ويرى ديفيد باسنجر David Basinger، ممثل معظم نقاد بلانتينجا، أن عبء الإثبات، في مثل هذه الظروف، ينتقل إلى الحصري، فيذهب إلى القول بأنه ما لم يكن بإمكان الحصري أن يثبت استنادًا إلى أسس معرفية مقبولة (أو ينبغي أن تكون مقبولة) لدى جميع العقلانيين، أن مؤيدي وجهات النظر المتنافسة ليسوا في الواقع على قدم المساواة المعرفية، فإن عليه أن يعتبر منافسه على قدم المساواة المعرفية معه، ومن ثم فهو ملزم بالانخراط في تقييم المعتقدات.

ويرى أيضًا أن الحصرية الدينية تمثل موقفًا مبررًا يجب التمسك به ما دام البحث عن الحقيقة معترفًا به كواجب معرفي أساسي. وقد صاغ هذا الواجب على النحو الآتي: إذا أراد أحد أنصار الحصرية الدينية تعظيم الحقيقة وتجنب الخطأ، فإنه يقع على عاتقه التزام ظاهري بمحاولة حل نزاع معرفي كبير بين الأقران. وعلى الرغم من أن باسنجر لا يؤكد أن على الحصري في مثل هذه الظروف حل الصراع المعرفي، يرى أن عليه على الأقل محاولة حل المشكلات التي يثيرها الوعي بالتنوع[٢].

يعتقد بلانتينجا أنه يوجد احتمالان أساسيان يمكن من خلالهما فهم الاعتراض القائل بأن الحصرية غير مبررة معرفيًا: الاحتمال الأول يتعلق بالادعاء الذي مفاده أن المدافع عن الحصرية يخالف الواجبات، أو الالتزامات العقلية أو

---

(1) Kelly James Clark, *"Pluralism and Proper Function,"* 167.

(2) Ibid., 167-168.

المعرفية، عند تشكيل ودعم الاعتقاد المعني. وفي رأيه لا ينطبق هذا الأمر على القائل بالحصرية، بل ويشدد على صعوبة رؤية أنه غير مبرر بالضرورة على هذا النحو. والاحتمال الثاني لفهم الإدانة –الإدانة القائلة بأن الحصرية غير مبررة معرفيًّا- له علاقة بالادعاء الذي تردد كثيرًا والذي مفاده أن الحصرية تعسفية من الناحية الفكرية. ربما تكمن الفكرة في وجود واجب عقلي هو التعامل مع الحالات المماثلة بنفس النحو، والحصري يخل بهذا الواجب باختياره تعسفيًّا الإيمان بالقضيتين ١ و٢ في مواجهة تعددية المعتقدات الدينية المتضاربة التي يقدمها العالم.

وردًّا على هذا الاعتراض يقول بلانتينجا: "ولكن هب أنه يوجد مثل هذا الواجب، فمن الواضح أنك لا تخل به إذا كنت تعتقد بنحو لا يوجب اللوم أن المعتقدات المعنية ليست على قدم المساواة. وبصفتي حصريًّا، أعتقد (على نحو لا يوجب اللوم، كما آمل) أنها ليست على قدم المساواة: أعتقد أن القضيتين ١ و٢ صادقتان، وأن القضايا غير المتوافقة مع أي منهما كاذبة"[١].

وتجدر الإشارة هنا إلى أن بلانتينجا يتوقع أن يكون الرد عليه متمثلًا في القول بأن موضوع النقاش لا يتعلق بالتكافؤ من حيث الحقيقة Alethic Parity (امتلاكهما لنفس القيمة الصادقة) بل بالتكافؤ المعرفي Epistemic Parity . ولهذا يتساءل: ما نوع التكافؤ المعرفي؟

ويجيب قائلًا: "حسنًا، قد يفكر الناقد بنحو أوليّ في التكافؤ المعرفي الداخلي: تكافؤ متعلق بما هو متاح داخليًّا للمؤمن، ويتضمن ما هو متاح داخليًّا، على سبيل المثال، علاقات يمكن اكتشافها بين المعتقد المعني والمعتقدات الأخرى التي تعتنقها، وبالتالي سيشمل التكافؤ المعرفي تكافؤ الدليل القضوي. وكذلك يتضمن ما هو متاح داخليًّا للمؤمن أيضًا الفينومينولوجيا التي تصاحب الاعتقاد المعني: الفينومينولوجيا الحسية Sensuous Phenomenology وأيضًا الفينومينولوجيا غير الحسية Nonsensuous Phenomenology المتضمنة في

---

(1) Alvin Plantinga, *"Pluralism: A Defense of Religious Exclusivism,"* 202-203.

الدليل العقائدي Doxastic Evidence، أي في الاعتقاد الذي يولد لديه شعورًا بأنه على حق"[١].

علاوة على ذلك، يرى بلانيتنجا أنه إذا كان جون كالڤِن محقًا في الاعتقاد بوجود شيء مثل الحس الإلهي والشهادة الداخلية للروح القدس، فقد تنتج القضيتان ١ و٢ بداخل المرء من خلال العمليات المنتجة لتلك المعتقدات، ويكون متاحًا له الفينومينولوجيا التي تصاحبهما. ونفس الأمر لا ينطبق على القضايا التي تتعارض مع هاتين القضيتين[٢].

ويتوقع بلانتينجا مرة أخرى أن يأتي رد المعترض على النحو الآتي: أليس من المحتمل أن أولئك الذين يرفضون القضيتين ١ و٢ لصالح معتقدات أخرى، لديهم أدلة قضوية بشأن معتقداتهم تتساوى مع الأدلة القضوية التي لدى المسيحي حيال معتقداته؟ وأليس صحيحًا أيضًا أن نفس الفينومينولوجيا أو ما شابهها تصاحب معتقداتهم كما تصاحب معتقدات المسيحيين، بحيث تكون هذه المعتقدات متساوية حقًّا معرفيًّا وداخليًّا مع القضيتين ١ و٢ ولا يزال المؤمن يتعامل مع مثل هذه القضايا بنحو مختلف؟[٣].

ويرفض بلانتينجا أيضًا هذا الرد، ويعتقد بوجود حجج فعلًا متاحة تؤيد القضية ١، على الأقل، غير متوافرة لمنافسيها. أما فيما يتعلق بالفينومينولوجيا المماثلة فيقر بأنه ليس من السهل قول ذلك؛ ليس من السهل معرفة ما يفكر فيه الآخرون. فمن الصعب فعلًا اكتشاف هذا الشيء، حتى فيما يتعلق بشخص ما تعرفه جيدًا. ويحاول بلانتينجا تفنيد رأي المعترض فيقول: "دعونا نتفق لغرض الحجة على أن هذه المعتقدات على قدم المساواة المعرفية، بمعنى أن أتباع الديانات الأخرى لديهم فيما يتعلق بمعقداتهم نفس العلامات المتاحة داخليًّا -الدليل،

---

(1) Alvin Plantinga, *Warranted Christian Belief*, 367; Idem, *"Pluralism: A Defense of Religious Exclusivism,"* 203.

(2) Alvin Plantinga, *"Pluralism: A Defense of Religious Exclusivism,"* 203.

(3) Alvin Plantinga, *Warranted Christian Belief*, 367; Alvin Plantinga, *"Pluralism: A Defense of Religious Exclusivism,"* 203.

والفينومينولوجيا، وما شابه- للمؤمن المسيحي فيما يتعلق بالقضيتين ١ و٢. فما الذي ينتج عن ذلك؟[١].

ويقول أيضًا:"هل أنا مخطئ في الاعتقاد بأن التعصب العرقي حقير وخاطئ تمامًا، على الرغم من أنني أعلم أن الآخرين يختلفون معي، وعلى الرغم من أنني أعلم أنه ليست لدي أي حجج تقنعهم؟ مرة أخرى، لا أعتقد ذلك"[٢]

ويوضح لنا بلانتينجا سبب اعتقاده هذا، فيذهب إلى القول بأنه في هذه الحالة لا يعتقد المؤمن المعني حقًّا أن المعتقدات المعنية متساوية معرفيًّا، وقد يوافق المؤمن على أنه وهولاء المخالفين مقتنعون بنفس القدر بصحة معتقداتهم. ومع ذلك، عليه الاعتقاد بوجود اختلاف معرفي مهم: فهو يعتقد أن الشخص الآخر قد ارتكب خطًا بطريقة ما، أو لديه نقطة عمياء، أو لم يكن منتبهًا تمامًا، أو لم يتلقَّ النعمة التي تلقّاها هو، أو أعماه الطموح أو الكبرياء أو حنان الأم، أو أي شيء آخر، يجب أن يعتقد أن لديه إمكانية الوصول إلى مصدر الاعتقاد المبرر وأن الآخر يفتقر إلى هذه الإمكانية[٣].

ومن هذا المنطلق، يرى بلانتينجا أنه إذا اعترف المؤمن بأنه لا يملك أي مصدر خاص للمعرفة أو الاعتقاد الحقيقي فيما يتعلق بالاعتقاد المسيحي- لا حس إلهي، ولا تحريض داخلي للروح القدس، ولا تعليم من كنيسة ملهمة ومعصومة من الخطأ من قِبَل الروح القدس، ولا يمتلك مصادر ليست متاحة لأولئك الذين يختلفون معه- فيمكن حينئذ اتهامه بنحو معقول بالأنانية التعسفية، وحينها سيكون لديه دليل مبطل لاعتقاده[٤].

ويرى بلانتينجا أنه لا يتعين على المؤمن المسيحي أن يعترف بهذه الأشياء، لأنه سيعتقد عادةً (أو على الأقل يجب أن يعتقد عادة) بأنه توجد مصادر للاعتقاد المسوغ تُنتج هذه المعتقدات. وهو يؤمن، على سبيل المثال، بأن الله كان في المسيح مصالحًا العالم لنفسه، وقد يؤمن بذلك على أساس تعاليم الكتاب المقدس أو الكنيسة. إنه يعلم أن الآخرين لا يؤمنون بهذا، وعلاوة على هذا، يعلم أنهم لا يقبلون

---

(1) Ibid.; Alvin Plantinga, *"Pluralism: A Defense of Religious Exclusivism,"* 203-204.

(2) Alvin Plantinga**,** *Knowledge and Christian Belief*, 98.

(3) Ibid.; Plantinga, *Warranted Christian Belief,* 369.

(4) Ibid.; Plantinga, *Warranted Christian Belief,* 368- 369.

سلطة الكتاب المقدس (أو الكنيسة) بشأن هذه المسألة أو بشأن أي مسألة أخرى. ولديه تفسير: توجد شهادة الروح القدس (أو الكنيسة المؤسسة والموجهة إلهيًّا)، وتمكنه هذه الشهادة من قبول تعاليم الكتاب المقدس. فالروح القدس هو من يطبعها على قلبه حتى يعرف بالتأكيد أن الله هو المتكلم بالفعل؛ إنها عمل الروح القدس لإقناعه بأن ما تتلقاه أذناه قد صدر منه. ونتيجة ذلك يعتقد بأنه في وضع معرفي أفضل فيما يتعلق بهذه القضية من أولئك الذين لا يشاركونه قناعاته، لأنه يعتقد بأن لديه شهادة الكنيسة الموجهة إلهيًّا أو الشهادة الداخلية للروح القدس، أو ربما مصدرًا آخر لهذه المعرفة[١].

ووفقًا لبلانتينجا قد يكون المؤمن المسيحي مخطئًا وواهمًا، وواقعًا في خطأ جسيم وموهن، بسبب تفكيره بهذه الطريقة، لكنه ليس بالضرورة مُذنبًا لتمسكه بهذا الاعتقاد، وهذا لأنه يعتقد على نحو لا يوجب اللوم بأن لديه مصدر معرفة أو اعتقاد حقيقي ينكر أولئك الذين يختلفون معه، وهذا يحميه من الأنانية المعرفية والتعسف[٢].

وفي رأيي أن زعم بلانتينجا بأن أتباع الأديان الأخرى مخطئون بطريقة ما يستند إلى تصور ذاتي محدد للحقيقة، ويتجاهل تعقيد التجربة الدينية والإنسانية. فكل منظومة دينية لها معاييرها الخاصة للصواب والخطأ، وبالتالي قد يكون ما يُعد خطأً في دين معين ليس خطأً في دين آخر. لكن بلانتينجا يفرض رؤية محددة للحقيقة ويرفض أي إمكانية لفهم أعمق للاختلاف الديني.

بيد أن بلانتينجا لكي يظهر أن تفكير الحصري على هذا النحو لا يُعد مثالًا على الأنانية المعرفية، يستشهد بالموقف الآتي: "حسنًا، هذا يحدث طوال الوقت. فعندما يجري معلم الأحياء اختبارًا ويقدم أحد الطلاب إجابة لا يوافق عليها المعلم، يعتقد المعلم بنحو صحيح أنه في وضع معرفي أفضل بحكم سنوات من التدريب والدراسة. إنه ليس أنانيًّا بسبب هذا الاعتقاد، ولذلك فالمؤمن الجاد ليس بالضرورة متغطرسًا أو متعسفًا فكريًّا إذا كان بإمكانه الاعتقاد بنحو معقول بأنه لا يتساوى معرفيًّا مع أولئك الذين يختلفون معه. هل يمكن لتفكيره هذا أن يكون عقلانيًّا؟ نعم،

---

(1) Ibid., 98-99; Plantinga, *Warranted Christian Belief* , 369.

(2) Ibid., 99; Alvin Plantinga, *Warranted Christian Belief*, 369

إنه يُعد كذلك، إذا كان يعتقد على نحو معقول أن النموذج الأكويني/ الكالڤِني الموسع المقدم أعلاه صحيح في الواقع[١].

ويتراءي لي أن بلانتينجا يوظف الأمثلة التي يستشهد بها بطريقة تخدم وجهة نظرة الشخصية التي افترض صحتها مسبقًا، فنلاحظ هنا أنه يضع نفسه في موقف المعلم ويضع أتباع الأديان الأخرى في موقف التلاميذ، لكن ماذا لو عكسنا الوضع، أو تساءلنا: لماذا لا يضع بلانتينجا الحصري من أتباع الأديان الأخرى في موقف المعلم؟ وهل من المستبعد تمامًا في جميع الأحوال أن يتفوق التلميذ على أستاذه؟ وبالطبع، ستتمثل الإجابة الموضوعية على هذه الأسئلة في القول بأن أمثلة بلانتينجا تعتمد على نظرة ذاتية غير قابلة للتحقق الموضوعي.

وفي موضع آخر يذهب بلانتنيجا إلى القول بأنه إذا كان النموذج الأكويني/ الكالڤِني الموسع صحيحًا في الواقع، فإنه يوجد إذًا اختلاف كبير بين الموقف المعرفي لأولئك الذين يقبلون الاعتقاد المسيحي وأولئك الذين لا يقبلونه. وعلى هذا الأساس، يرى بلانتينجا أن المعترض يفترض، دون مبرر ودون حجة، أنه لا هذا النموذج ولا أي نموذج آخر يفيد بوجود مصدر لاعتقاد مسيحي مسوغ صحيح في الواقع، وأنه لا يوجد مصدر من هذا القبيل فيما يخص الاعتقاد المسيحي. ولأن بلانتينجا يرى أنه لا يوجد ما يُقال بشأن هذا الافتراض، فإن النتيجة التي يتوصل إليها هي أن تهمة التَعَسُّف باطلة[٢]

وتجدر بنا الإشارة هنا إلى أن بلانتينجا على الرغم من رفضه الشديد لمزاعم التعدديين، يعترف بتأثير الوعي بالتنوع الديني على بعض المسيحيين. فيذهب إلى القول بأنه بالنسبة إلى بعض المؤمنين المسيحيين على الأقل، يبدو أن الوعي بالتنوع الهائل للاستجابات الدينية البشرية يقلل من مستوى الثقة بمعتقدهم المسيحي. لكنه لا يفعل ذلك أو لا يحتاج إلى أن يفعل ذلك عن طريق الحجة. ففي الواقع لا توجد أي حجج معتبرة من القضية القائلة بأن العديد من الأشخاص المتدينين على ما يبدو في جميع أنحاء العالم يرفضون القضيتين ١ و٢ لصالح الاستنتاج القائل بأن القضيتين ١ و٢ كاذبتان أو لا يمكن قبولهما إلا على حساب

---

(1) Ibid.

(2) Alvin Plantinga, *Warranted Christian Belief*, 370.

القصور الأخلاقي أو المعرفي. ومع ذلك، فإن معرفة الآخرين الذين يفكرون بنحو مختلف يمكن أن تقلل من درجة إيمان المرء بالتعاليم المسيحية.

ويمضي بلانتينجا موضحًا لنا أن هذا الوضع الخاص بالتعددية الدينية، من وجهة النظر المسيحية، هو في حد ذاته مظهر من مظاهر حالتنا البشرية البائسة، وقد يحرم المسيحيين حقًّا بعض الراحة والسلام اللذين وعد بهما الرب أتباعه. ويمكن أيضًا أن يحرم المؤمن معرفة أن القضيتين ١ و٢ صادقتان، حتى لو كانتا صادقتين وكان يعتقد أنهما كذلك. ولأن درجة التبرير تعتمد جزئيًّا على درجة الاعتقاد، فمن الممكن، إن لم يكن من الضروري، أن تؤدي معرفة حقائق التعددية الدينية إلى تقليل درجة اعتقاده، ومن ثم تقليل درجة التبرير التي تتمتع بها القضيتان ١ و٢ بالنسبة إليه، وبالتالي يمكن أن تحرمه معرفة القضيتين ١ و٢. قد يكون من النوع الذي إذا لم يكن يعرف حقائق التعددية، لكان قد عرف القضيتين ١ و٢، لكنه الآن يعرف هذه الحقائق، فهو لا يعرف القضيتين ١ و٢. وبهذه الطريقة قد يعرف القليل بمعرفة المزيد[١].

وهكذا، يعتقد بلانتينجا أن الوعي بالتنوع الهائل للاستجابة الدينية البشرية بالنسبة إلى معظم الحصريين يُعد دليلًا مُبطلًا لمعتقدات مثل ١ و٢، وهو دليل مُبطل مُقوِّض على عكس الدليل المُبطل الداحض. إنه يثير الشكوك، بدرجة أو بأخرى، تجاه مصادر إيمان المرء بمثل هذه المعتقدات[٢].

وعلى الرغم من أن بلانتينجا يرى أن الأمور يمكن أن تسير على هذا النحو مع القائل بالحصرية، يرى أيضًا أن هذه الأمور ليست بحاجة إلى أن تسلك هذا المنحى. ولتوضيح وجهة نظرة هذه يقول:

"تأمل مرة أخرى في التماثل الأخلاقي. لعلك كنت تعتقد دائمًا أنه من الخطأ الشديد أن يستخدم المستشار منصبه الموثوق به لإغواء العميل، ولعلك تكتشف أن الآخرين يختلفون معك؛ إنهم يعتقدون أن موقفه يشبه إلى حد كبير هفوة صغيرة، كتشغيل إشارة حمراء دون أن توجد حركة مرور، وتدرك أنه من المحتمل

---

(1) Ibid., 371; Alvin Plantinga, *"Pluralism: A Defense of Religious Exclusivism,"* 214; Idem, *Knowledge and Christian Belief*, 99-100 .

(2) Alvin Plantinga, *"Pluralism: A Defense of Religious Exclusivism,"* 214.

أن تكون لدى هؤلاء الأشخاص فيما يتعلق بمعتقداتهم نفس العلامات الداخلية التي تملكها حيال معتقداتك. إنك تعتقد أن الأمر قد انتهى بالكامل وتعيد خلق مثل هذه المواقف وتتدرب عليها بنحو خيالي، وتصبح أكثر وعيًا بما ينطوي عليه مثل هذا الموقف (خيانة الأمانة والظلم وعدم الإنصاف، والسخرية المؤلمة في موقف يأتي فيه شخص ما إلى مستشار طالبًا المساعدة، ولكنه لا يتلقى إلا الأذى) وتؤمن بقوة أشد بأن مثل هذا التصرف خطأ. بهذه الطريقة، يمكن أن يكتسب هذا الاعتقاد مبررًا أكبر بالنسبة إليك، بفضل تعلمك والتفكير في الحقيقة التي مفادها أن بعض الأشخاص لا يرى الأمر على طريقتك. ومن الممكن أن يحدث شيء مشابه في حالة المعتقدات الدينية، فالوعي الجديد أو المتزايد بحقائق التعددية الدينية يمكن أن يؤدي إلى إعادة تقييم الحياة الدينية للمرء، وإلى اليقظة والفهم الجديد أو المتجدد أو العميق للقضيتين ١ و٢. ومن وجهة نظر النموذج الأكويني/ الكالڤِني الموسع، يمكن أن يكون بمثابة مناسبة لعمل متجدد وأكثر قوة للعمليات المنتجة للمعتقدات، والتي نصل من خلالها إلى فهم القضيتين ١ و٢. وبهذه الطريقة يمكن أن تكون معرفة حقائق التعددية في البداية بمثابة دليل مبطل، ولكن على المدى الطويل، يمكن أن يكون لها تأثير عسكي تمامًا"[١].

ويخلص بلانتينجا إلى أن حقائق التعددية الدينية، لا تشكل، أو لا تشكل بالضرورة، دليلًا مبطلًا للاعتقاد المسيحي[٢].

وفي رأيي، هذا الاستنتاج الذي توصل إليه بلانتينجا يتعارض مع وجهة نظرة القائلة بأن الوعي بالتنوع الهائل للاستجابة الدينية البشرية قد يثير الشكوك، بدرجة أو بأخرى، تجاه مصادر إيمان المرء بمعتقدات مثل ١ و٢. ومن ثم، يمكننا هنا توجيه نقد إلى بلانتينجا مفاده أن التعددية الدينية إذا كانت تُشكل دليلًا مُبطلًا مُقوضًا، فإن هذا يعني أن الحصرية ليست مبررة بالكامل، ما يضعف موقفه الدفاعي.

---

(1) Alvin Plantinga, *Warranted Christian Belief*, 371; Idem, *Knowledge and Christian Belief*, 100; Idem, *"Pluralism: A Defense of Religious Exclusivism,"* 2014-2015.

(2) Ibid.; Alvin Plantinga, *Knowledge and Christian Belief*, 100.

وفي الحقيقة أن مثال المستشار هذا يدفعنا لتوجيه نقد إلى بلانتينجا يحمل نفس فكرة النقد المتعلق بمثال المعلم والتلميذ. فمن الواضح تمامًا بالنسبة إلي هنا أيضًا أن بلانتينجا يطرح مثالًا يُظهر التحيز المعرفي ليقنعنا بوجهة نظره الشخصية التي تنطلق من إيمانه بتعاليم الكتاب المقدس.

وفي ختام هذا الفصل، يمكننا القول إننا إذا أمعنا النظر في موقف بلانتينجا تجاه المعتقدات الأخرى، فسيتبين لنا أن هذا الموقف يقوم على الافتراضات الذاتية، وأن هذه الافتراضات دفعته لتجاهل واقع أتباع الأديان الأخرى، الذين لا يرون أنفسهم في حالة خطأ معرفي، كما يفترض، بل يعتقدون أن معتقداتهم تمتلك انسجامًا داخليًّا ومعقولية معرفية، وتجربة روحية ليست أقل قيمة من تجربته الخاصة. ويتراءي لي أن المرء إذا تبنى وجهة نظر بلانتينجا تجاه الأديان الأخرى، فإن هذا يعني أنه يتبنى وجهة نظر لا تسمح لصاحبها بفهم أكثر إنسانية وتواضعًا للحقيقة الدينية.

نتائج البحث:

نخلص من العرض السابق لحديث بلانتينجا عن التعددية الدينية إلى بعض الاستنتاجات، لعل من أهمها ما يأتي:

١- إن تمييز بلانتينجا بين الأدلة المبطلة الداحضة والأدلة المبطلة المقوضة يُظهر لنا أنه يرى أن الحقيقة ليست مطلقة، بل تعتمد على السياق والمعلومات المتاحة للمرء. وهذا الرأي يُظهر تأثره بوجهة نظر وليم جيمس القائلة بأن الفكرة تصير حقيقة عندما تساعدنا على التعامل بنجاح مع الواقع.

٢- سعى بلانتينجا إلى تبرير الاعتقاد الديني عبر القياس بين العالم المحسوس والعالم المتجاوز للحس، وهذا يعني أنه تعامل مع هذا الاعتقاد كما لو أنه يمتلك نفس طبيعة المعتقدات الحسية في حين أنه يختلف في جوهره عنها.

٣- إن رفض بلانتينجا للانتقادات التي وجهها فرويد وماركس إلى الاعتقاد التأليهي يرجع لاعتقاده بأن الأدلة الخاصة بهما لا يمكن اعتبارها أدلة مُبطلة داحضة ولا حتى مقوضة لهذا الاعتقاد، وأما رفضه للتفسير الذي قدمه كوين للاعتقاد التأليهي فيرجع لقناعته بأن الايمان بالله ليس جزءًا من نظرية تفسيرية ولا يمكن إخضاعه لمعايير الفرضيات العلمية.

٤- إن تأكيد بلانتينجا على صحة الحصرية استنادًا إلى مفهومه عن الحس الإلهي، يدفعنا للقول بأنه لم يضع في الاعتبار إمكانية وجود هذا الحس لدى أتباع الأديان الأخرى، وهذا يعني ضمنيًّا إنكارًا لجميع الخبرات الدينية الأخرى، ومن ثم إنكارًا لحقيقة واقعية يمكن للجميع أن يلاحظها.

٥- إذا تبنى الحصري من أتباع الأديان الأخرى وجهة نظر بلانتينجا القائلة بأن على الحصري أن يظل متمسكًا بمعتقداته على الرغم من معرفته بأن حججه غير كافية لإقناع معارضيه، فإن هذا الأمر يعني أن على بلانتينجا أن يقر بأنه ليس محقًّا في نفيه لصحة العقائد الدينية الأخرى، وبأن موقفه يعاني إشكالية التحيز غير المبرر.